

فلسفة القيمة الحجاجية عند الجاحظ _ كتاب البيان والتبيين أنموذجًا _

*The Philosophy of Argumentative Value in Al-Jahiz's Work: The Book of Explanation and Clarification as an Example*منى حفصي^{1*}

جامعة 8 ماي 1945-قالة- (الجزائر) hafsi.mouna@univ-guelma.dz

تاريخ النشر: 2026/04/12

تاريخ القبول: 2026/02/15

تاريخ الاستلام: 2025/10/30

ملخص: تهدف هذه الدراسة لإرساء جملة من مضامين كتاب البيان والتبيين للجاحظ، لما تحتويه من قضايا فكرية ولغوية تتضمن حضور المقصدية الحجاجية، التي تمكن من الكشف عن مقاصد المتكلم، انطلاقاً من عرض قيم فكرية جاءت كاستراتيجية لغوية حجائية ذات مستويات متفاوتة في قوتها وضعفها، وعلى ضوء ذلك توصلنا إلى مجموعة من النتائج _فيما يخص القيمة الحجاجية عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين_، إذ إنّ المقصدية الحجاجية حاضرة في العملية التواصلية وذلك من خلال المادة الخام للحجاج الكامنة في اللغة في أشكالها التواصلية المختلفة، وكذلك ما تسهم به الروابط والعوامل الحجاجية في بناء ترابعية السلم الحجاجي الذي يدخل بشكل مباشر في إنتاج الخطاب الحجاجي الذي يرتبط بشكل مباشر بالحياة الاجتماعية والمواقف الإنسانية.

كلمات مفتاحية: الجاحظ، القيمة الحجاجية، الخطاب الحجاجي، الإقناع، التواصل.

Abstract This study aims to establish a set of contents from Al-Jahiz's book Al-Bayān wa al-Tabyīn, due to its intellectual and linguistic issues that include the presence of argumentative intent, which enables the disclosure of the speaker's intentions, based on the presentation of intellectual values that came as a rhetorical linguistic strategy with varying levels of strength and weakness. In light of this, we have reached a set of conclusions regarding the rhetorical value in Al-Jahiz's book Al-Bayān wa al-Tabyīn, as the argumentative purpose is present in the communication process through the raw material of argumentation inherent in language in its various communicative forms, as well as through the contribution of argumentative links and factors in constructing the argumentative hierarchy that directly enters into the production of argumentative discourse, which is directly related to social life and human situations.

Keywords: Al-Jahiz, rhetorical value, rhetorical discourse, persuasion, communication.

*المؤلف المرسل :

1_ مقدمة:

يعدّ الفكر الجاحظي نقطة مرجعية للكثير من الدراسات، ذلك أنّه يتضمن أفكاراً وأسساً نقدية وحجاجية إقناعية تفصح عن مقاصد العملية التّواصلية المباشرة وغير المباشرة؛ وذلك يتم باستثمار اللّغة اللّفظية وغير اللّفظية التي تسهم بشكل فعّال في تكوين خطاب حجاجي يمكن المخاطب بالوصول إلى غاياته الخطابية، فكان الخطاب الحجاجي من أسس ومرجعيات فكر الجاحظ، بحيث عدّه استراتيجية لغوية وفنية يحقق التّواصل الفعّال، وذلك باستثمار الحجج اللّغوية والإشارية والعلاماتية التي يهدف بها أطراف الخطاب التّأثير والإقناع والمحاجة.

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الإجابة على جملة من التّساؤلات؛ أهمها: هل يمكن الكشف عن مظاهر القيمة الحجاجية في كتاب البيان والتّبيين؟ وما هو مفهوم الخطاب الحجاجي؟ وما علاقته بالدرس البلاغي المتضمن في كتاب البيان والتّبيين للجاحظ؟ وإلى أي مدى استثمر الجاحظ التّظيرية الحجاجية في الكشف عن آليات العملية التّواصلية؟ وما هي أهم إسهامات الجاحظ في الدرس الحجاجي؟ وهل قضايا الحجاج المعاصر تتوافق مع ما قدمه الجاحظ؟

وللإجابة على التّساؤلات المطروحة سلطنا منهجاً حجاجياً لإدراك مدى إسهام الجاحظ في الإبانة عن مظاهر القيمة الحجاجية، ومدى فاعليته في قيام الدرس الحجاجي المعاصر، وبناءً على ذلك فإنّنا لا ننكر أنّه توجد العديد من الدراسات السابقة التي اهتمت بالجانب اللّغوي والبلاغي والتّداولي والحجاجي، على غرار الدراسات التي قدمها أبو بكر العزاوي، وطه عبد الرحمن، وعبد الله صولة. وكذلك يمكن ترجمة التّساؤلات السابقة إلى الفرضيات التالية:

- ✓ يمثل فكر الجاحظ في كتاب البيان والتّبيين من مرجعيات وأسس الدراسات اللّغوية والحجاجية والبلاغية والنقدية والتّداولية المعاصرة.
- ✓ الخطاب الحجاجي استراتيجي لغوي عند الجاحظ يتحقق من طريقها الفعل التّواصل.
- ✓ القيمة الحجاجية من الظواهر اللّغوية التي اهتم بها الجاحظ في كتابه البيان والتّبيين.
- ✓ يمكن للعوامل اللّغوية الحجاجية أن تكشف عن الغايات الإقناعية للمخاطب ومقاصده، كما أنّها مؤشر من مؤشرات تجلي الفعل الحجاجي.

2_ مفهوم الخطاب الحجاجي:

نشير في البداية إلى أنّ نظرية الحجاج في اللّغة (l'argumentation dans la langue) التي جاء بها الفرنسي "أزفالد ديكر" تنطلق من فكرة مفادها أننا "نتكلم عامة بقصد التّأثير"، مما يضفي على اللّغة صبغة الوظيفة الحجاجية في ذاتها، إذ تظهر من خلال بنية الأقوال، ومن خلال المعنى المقصود، وفي

الظواهر الصَوْتِيَّة والصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية¹، التي تعطي للخطاب لونًا استدلالياً يؤدي إلى نتيجة ما، وهذه النظرية هي وُلدت من أحشاء نظرية الأفعال اللغوية التي جاء بها كل من أوستين وسورل، إلّا أن ديكرام قام بتطوير أفكارهما، واهتم بالخطاب الحجاجي داخلياً، وخارجياً من خلال الأثر الذي يرتبط بفعل الإقناع، ومدى تأثير الحجج والأدلة والبراهين في المخاطب.

يحمل الحجاج في اللغة معنى عرض الأدلة والحجج التي تؤيد خطاب الدعوى، إذ يعد الحجاج والحجة تصب العائلة اللسانية نفسها، وقد جاء في لسان العرب لابن منظور "الحُجَّة: البرهان؛ وقيل: الحُجَّة ما دُفِعَ به الخصم؛ وقال الأزهري الحُجَّة الوجه الذي يكون به الطُّفَرُ عند الخصومة.....يقال: حاججته أحاجه حجاجاً ومُحاجَّةً حتى حَجَّجْتُهُ أي غَلَبْتُهُ بالحُجَج التي أدلَّيْتُ بها. وهو رجل مُحجَّجٌ أي جَدِلٌ"⁽²⁾، ففي اللغة يقصد بالحجاج الخصام والنزاع من طريق استحضار الأدلة والبراهين والحجج، كما أنه أحوال وتقاطع مع لفظ الجدل.

أما في الاصطلاح لقد تعددت مفهومات الحجاج، وتضاربت، واختلفت حسب كل قضية أو كل مجال جرى فيه الخطاب الحجاجي، وبداية نجد مفهوم الحجاج على حسب "بيرلمان" و"تيتيكاه" في المجال القانوني، إذ يعرفانه بقولهما: "والغاية من كلِّ حجاج هو جعل العقول تدعن وتسلم بما يُطرح عليهما من الأقوال أو يزيد في درجة ذلك الإذعان وذلك التسليم فأنجع الحجاج وأنجحه ما وُفِّق في جعل حدّة الإذعان تقوى لدى السامعين بشكل يبعثهم على عمل المطلوب"⁽³⁾، وهذا التعريف ربط مفهوم الحجاج بغايته وبهدفه الإقناعي، الذي يقوم على الاستدلال والحجة ضمن خطاب موجه إلى سامع يتطلب منه ردّة فعل، أو ممارسة عمل ما يبين فيه عن موقفه، وذلك لكون الحجة عنصر دلالي يتناسل من عنصر دلالي آخر كنتيجة له⁽⁴⁾، بحيث تكون وفقاً لما بثه المخاطب وما يقصد من ورائها.

نطاق الحجاج لا يخص فقط المجال القانوني، بل يستمد قاعدته من المجال الفلسفي، إضافة إلى امتداده المجال البلاغي والتداعي؛ حيث يبرر تعدّد مفهومات الحجاج، ويرجع ذلك إلى ارتباط مفهوم الحجاج بمفهوم اللغة ومفهوم الخطاب ومفهوم اللفظ ومفهوم الفعل الكلامي في المجال التداعي وغيرها. ويعرّف طه عبد الرحمان الحجاج بأنه "كل منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"⁽⁵⁾، وهذا يعني أنّ الحجاج عملية مقصودة، حيث يستعمل المرسل الألفاظ التي تخدم غايته، وقصده المتمثل في إفهام المتلقي، ويكون خطابه مبنياً على أساس مراعاة المعطيات الخاصة بالمتلقي والسياق المقامي للخطاب، مما يولّد تفاعلاً بينهما. كما يضيفي إلى "أن الذي يحدد ماهية الخطاب إنّما هو «العلاقة الاستدلالية»، وليس العلاقة التخاطبية وحدها: فلا خطاب بغير حجاج، ولا مخاطب (بكسر

الطاء) من غير أن تكون له وظيفة «المدعي» ولا مخاطب (بفتح الطاء) من غير أن تكون له وظيفة «المعترض»⁽⁶⁾، أي أنه لكل عملية حجاجية ضمن خطاب موجه ومقصود لإحداث أثر في المتلقي، الذي يمتلك حق الاعتراض.

ينزع الحجاج إلى تغيير أفكار المتلقي وتصريفها، ولهذا يمكننا القول إنه عملية تواصلية يقدم خلالها المتكلم الحجج المنطقية والبراهين والأدلة المختلفة بغية إقناع المتلقي والتأثير إزاء موضوع الخطاب المعروف، وجعله يسلم بمضامين الخطاب، ويتقبل الحجج ويتجاوب مع الموضوع من طريق وسائل عدة. ويتحقق فعل التأثير الإقناعي بشكل يبين اعتماد الخطاب الحجاجي على موضوع النص لا على النص، باستثمار وسائل الإقناع⁽⁷⁾ المختلفة، والتي تماشى والسياق المقامي للحدث الخطابي، وتكون هذه الوسائل الإقناعية حججاً فاعلة في توجيه موقف المتلقي، أو تغييره، أو ردعه.

يستعمل المتكلم الحجاج من طريق اللغة التي تتضمن داخلياً (في ذاتها) وسائل إقناعية وحجاجية لغوية أو بلاغية أو منطقية، بغية التأثير في المتلقي وفي مستوياته المختلفة، إذ تتدرج هذه المستويات من التسليم بالأفكار ووجهات النظر ومضامين الموضوع والمواقف، إلى فعل التغيير، إلى فعل الإقناع..... وهلم جر، وذلك حسب فاعلية الحجج وقدرتها التأثيرية المختلفة، كما أن بناء الحجج يتفاوت بين القوة والضعف حيث يدرج تحت ما يسمى بالسلم الحجاجي، إذ تعمل المحاجة وفق التلازم بين الخطاب الحجاجي ونتائجه، وهذا التلازم يعكس تعدداً للحجة مقابل نتيجة واحدة، والسلم الحجاجي هو عبارة عن "علاقة تراتبية للحجج"⁽⁸⁾ تتضح قوتها وضعفها من خلال ملفوظات الخطاب الحجاجي التي تخدم النتيجة وما تؤدي إليه ومثال ذلك:

أ_ خالد يتقن فن الرسم بالرمل.

ب_ خالد نجح في المسابقة الوطنية للفن.

ج_ خالد تحصل على جائزة دولية في فن الرسم بالرمل.

فهذه الأقوال كلها تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة، تؤدي إلى نتيجة ضمنية واحدة، تقدم مهارة خالد وكفاءته الفنية، وهو دليل على مكانته الفنية، أما القول الأخير بحصول خالد على جائزة دولية في فن الرسم بالرمل من أعلى درجات السلم الحجاجي، فهو أقوى الأدلة على موهبة خالد في فن الرسم بالرمل. كما يمكننا أن ننبه إلى أن بناء السلالم الحجاجية رهين بالذاتية، والتدرج الحجاجي في الخطاب يحتكم إلى مرجعية القوة والضعف ولا يخضع إلى منطق الصدق والكذب.

ولا ننسى الإشارة إلى أن أهم قوانين السلم الحجاجي تكمن في⁹:

_قانون النفي.

_قانون القلب.

_قانون الخفض.

3_ القيمة الحجاجية:

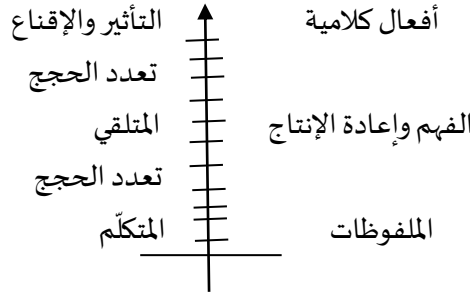
يتعلق الحجاج بشكل مباشر بالأفعال الإنجازية المتضمنة في نظرية الأفعال الكلامية، حيث يتحقق بالملفوظ في بعده الغائي وحينما تتصل به القيمة الحجاجية، وذلك من أجل تحقيق مقصديته وغايته التأثيرية والإقناعية. ولا تتحقق القيمة الحجاجية لقول معين بما يتضمن من معلومات، بل تتحقق من طريق ما تفضي إليه النتائج الممكنة والمحتملة⁽¹⁰⁾، إذ إنها ترتبط بأثر ملفوظات القول في المتلقي التي تقود إلى نتيجة مقصودة، وإمكانية توجيهه (المتلقي) لتحقيق غايتها التأثيرية الإقناعية.

يتحكم السلم الحجاجي من طريق العلاقة للزامية بين تعدد الحجة والنتيجة واحدة في تصنيف الأفعال الحجاجية من الأضعف إلى الأقوى، مما يجعل مفهومه يرتبط بمفهوم آخر يتمثل في "مفهوم الوجهة أو الاتجاه الحجاجي (l'orientation argumentative) ويعني هذا المفهوم أنه إذا كان القول ما يمكن من إنشاء فعل حجاجي، فإن القيمة الحجاجية لهذا القول يتم تحديدها بواسطة الاتجاه الحجاجي، وهذا الأخير قد يكون صريحاً أو مضمراً"⁽¹¹⁾، وذلك انطلاقاً من القول أو الخطاب، فعندما يتوافر في القول بعض الروابط الحجاجية (les connecteurs) من مثل: بل، لكن، حتى، لاسيما، إذن، إذ، لأن،.....، ويتوافر فيه بعض العوامل الحجاجية (les opérateurs) من مثل: ربما، قليلاً، كثيراً، إلا،.....، فإن هذه الأدوات اللغوية والروابط تتضمن ما يمكنها من توجيه القول أو الخطاب، أما في حالة عدم توافر هذه الروابط والأدوات في الخطاب أو القول، فإنه من المستطاع استنتاج ما يمكن من تحديد الاتجاه الحجاجي من طريق الملفوظات والكلمات المكونة للخطاب، إضافة إلى سياقها التداولي.

والحجاج في اتجاهه الحجاجي وتوجيهه _حتى لو كان يضيف إلى نتيجة واحدة_ إنه يضمن طاقة يؤديها العقل البشري من العمليات الذهنية وممارسة النشاط الذهني، ولاسيما التفكير والفهم والتأمل، مما يولد تواصلاً فعالاً بين أطراف الخطاب في العملية التخاطبية، والتواصل "قد يكون لغوياً أو غير لغوي، والحجاج يكون هو الآخر بوسائل لغوية وأخرى غير لغوية. وإذا كان الأستاذ طه عبد الرحمان قد قال في بحثه الذي يحمل عنوان "التواصل والحجاج" ما نصه: "لا تواصل باللسان من غير حجاج ولا حجاج بغير تواصل باللسان" فإننا نعدل هذه المقولة ونوسع مجال تطبيقها فنقول: "لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج بغير تواصل"⁽¹²⁾، وانطلاقاً من هذا يمكننا ربط الحجاج بكافة أنواع التواصل، مما

يجعل الخطاب الحجاجي عملية تواصلية تعتمد على القيم المشتركة بين طرفي العملية لتحقيق قوة التأثير في المتلقي وإقناعه بالإبانة عن الحجج، وهذا التوجه الحجاجي في دراسة معايير إنتاج الخطاب كان من أكثر اهتمامات "الجاحظ".

ويمكن توضيح قانون القيمة الحجاجية في المخطط الآتي:



القانون الحجاجي: متكلم + حجج إقناعية + متلقي + إعادة الإنتاج = إلزامي تأثير وإقناع.

4_ مظاهر القيم في "كتاب البيان والتبيين":

تعدّ نظرية الحجاج دراسة فاعلة للعملية التّخاطبيّة والتّقنيّات الخطابيّة، التي تقوم على تمكين المتكلم من التأثير في المتلقي وإقناعه بموقف ما، وذلك بتغيير وجهة نظره أو تعديلها إزاء الموضوع المناقش؛ باستحضار الحجج المناسبة والداعمة لمضمون الموضوع المطروح، وخادمة للنتائج والآثار التي يسعى المتكلم إلى إحداثها في المتلقي، كما أنّها تهتم بالشروط التي يمكن من خلالها أن ينشأ الحجاج في الخطاب، وذلك من طريق ملفوظات أو مورفيمات أو تعبيرات تسهم في حجاجيّة الخطاب وفي تطوره وفي استمراره، إضافة إلى بيان الأثر الذي يُحدثه الخطاب الحجاجي في المتلقي، وما ترسمه من أبعاد تجمع بين الجدل والحجاج والبرهان والاستدلال، وإنّها أولت عنايتها بشكل واضح وصريح في كينونة الخطاب الحجاجي على أنّه وسيلة إقناعية بامتياز.

وهذه النّظرية بما تحمله من تفاصيل حجاجية وإقناعية وتواصلية ومختلف الأبعاد التداولية، نجدها متضمنة في النّصوص العربيّة القديمة متناثرة الأطراف في موسوعات كتهم القيمة، ولا يمكننا أن نتجاهل عبقرية الجاحظ في كتاباته اللّغوية المتنوعة، حيث نلاحظ أنّ النّظرية الحجاجية متأصلة في ثنايا

كتابه "البيان والتبيين"، الذي ينظر فيه إلى اللغة بكل أشكالها التواصلية من الزاوية الوظيفية، ونجاعة ذلك في العملية التواصلية من الجانب الحجاجي، وقدرتها على التأثير في المتلقي وإقناعه.

نلاحظ حضور المقصدية الحجاجية في كتاب الجاحظ، إذ إننا نجده يعالج مسألة التواصل وعملياته القائمة بين الناس عن قصد أو بعفوية المقصد، والظاهر والباطن منها بشكل جيد، مستمداً (الجاحظ) ذخيرته من الواقع المتزامن له، ومن حيثيات السياق المقامي للتواصل اليومي، ولاسيما أن الجاحظ أولى اهتمامه الفائق بالجدل والمناظرة والبلاغة والبيان والفصاحة في مدى تأثير هذه العناصر باختلافها، واختلاف المواقف في سيرورة العملية التبليغية، مما يسهم في الإبانة ونجاح العملية الإفهامية. وسنحاول في قراءتنا لكتاب البيان والتبيين للجاحظ كشف بعض ظواهر القيمة الحجاجية عنده، إضافة إلى بيان أهمية الطاقة الحجاجية في بناء الخطاب الحجاجي الناجع من خلال العناصر الآتية:

4_1_حجاجية المقامات التواصلية والبعد الحالي:

”لا تواصل من غير احترام قواعد المقامات والحجاج“

تتصف الحياة الاجتماعية بطعمها التواصلية، إذ يرتبط الإنسان بفعل التواصل، فالكلام تواصل والحركات تواصل والرقص تواصل، والتألم تواصل، والابتسامة تواصل.....، ويتجسد التواصل في كل سلوك صادر عن شخص ما، لأنه يريد القول من وراء الفعل القولي أو الفعل الفاعل. حتى الصمت له دلالات¹³، ذلك أنه يعبر عن حالة ما، ليكون له أثر في التفاعل الحاصل بين طرفي العملية التواصلية (المتكلم، السامع)، ويعني التواصل تلك القدرة التي تمكن المتكلم من تبليغ رسالته، إذ يتعدى في ذلك استعمال اللغة المنطوقة إلى اللغة المكتوبة واللغة الصامتة (الإشارات، والإيماءات، وحركات الجسد، واللون، والموسيقى، والصورة، والرقص....)، وكل هذه الترابطات التواصلية تدور في فلك البلاغة بمقاماتها وأحوالها وذلك ما أشار إليه الجاحظ في كتابه ومن العناصر الحجاجية التي اهتم بها: "مقتضيات الأحوال والمقامات" وما تهتم به من أحوال المتكلمين وكفاءاتهم اللغوية؛ حيث فصل القول فيما يخص الخطيب من صفات جسدية وملكات ذهنية، ولم يقتصر حديثه على تعداد المميزات الإيجابية التي تمنح خطابها القبول، من حلاوة القول والحدق فيه بل فطن إلى التنبيه على الخصائص السلبية التي تضعف من موقفه مثل: العيوب النطقية والعي. كما لم يغفل عما يتعلق بهيئة الخطيب العامة من طول وقصر وحسن ودمامة وما يجب أن يتحلى به من أخلاق وما يعاب في ذلك¹⁴

ونجد كذلك التّواصل بمعنى الخطاب والحجاج؛ فالمرسل يستثمر المنطق في أثناء العملية التّواصلية، من طريق توجيه جملة من الحجج والأدلة والبراهين صوب منطقة العقل، مما يخدم الموضوع المقصود ومناسبا لظروفه المحيطة، بغية التأثير في المتلقي¹⁵ وإقناعه بأفكاره أو من أجل تعديل سلوكه. وعندما نتحدث عن التّواصل الفعال من طريق الخطاب الحجاجي المؤثر والمقنع، فهو لا يتأتى إلا إذا توافرت العناصر الكفيلة بنجاح العلاقة التّواصلية بين المخاطب والمخاطب، والتي تؤدي إلى فعل ما أو بالأحرى إلى نتيجة ما، والجاحظ اهتم في هذا الأمر بالكثير من الجوانب التي يتحقق من طريقها التّواصل الفعّال أهمها:

4_2_البيان الجاحظي:

نلاحظ عند الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" أنّ مدار العملية التّواصلية يتوقف على البيان في مسألة الفهم والإفهام الحاصلة بين المتكلم والسمّاع، والتي تؤدي إلى نتيجة واحدة تتمثل في قناعة المتلقي بأفكار وآراء المتكلم من خلال فهمه وتفاعله؛ فلا يمكن لأي إنسان أن يتواصل مع غيره إلا من طريق الإبانة والوضوح، ولاسيما الإبانة عن مقاصده لدى المتلقي، إذ إنه يقول شيئا ويقصد شيئا آخر يمكن الوصول إليه بفهم العلاقة التّخاطبية (مخاطب، مخاطب) والموضوع وما يحيط بهما من ظروف وأحوال، حتى في الألفاظ نفسها وتراكيبها، حيث لا يمكن استعمال كل اللّغة للتعبير عن موقف ما، بل يُختار منها الأقرب والأكثر فاعلية للتعبير عن ذاك الموقف أو هذا، ذلك أنّ لكل قول أو خطاب معنى ظاهر ومعنى باطني مرتبط بالعوامل اللّغوية الشكلية الظاهرة والمضمرة، كما أنّه يرتبط بالسنن، أو ما يمكن القول عنه القواعد المشتركة، أو العرف اللّغوي المشترك بين أهل البيئة اللّغوية الواحدة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ سورة إبراهيم (04)، فالآية الكريمة جاءت لتبين أنّ أمر التّواصل يتوقف على البيان والتبيين، فلكي تُبلّغ الرسالة على أكمل وجه وتنجح عملية التّواصل لابد من التركيز على الإفهام والتفهم؛ وذلك أنّه كلما كان اللسان أبين¹⁶ كان التّواصل فعالا بين البشر، وأنّه لكل مجتمع لغة يتواصل بها أفرادها والتي تتميز من لغات المجتمعات الأخرى، والمنطق التّواصلي قائم على لغة مشتركة بين المجموعة المتواصلة فيما بينها.

فاللّغة المتداولة المحكية والمألوفة في مجتمع ما، تكون حجة في حد ذاتها تربط بين أطراف العملية التّواصلية، بل تمثل رابطاً حجاجياً ودليلاً واضحاً يسهم بشكل واضح في الإبانة عن معاني المتكلم ومقاصده ودعواه التي يسعى من ورائها إلى التأثير في المتلقي، بل يهدف إلى استجابته.

وفي موضع آخر يظهر اهتمام "الجاحظ" بحجاجية الخطاب من خلال العوامل الحجاجية المضمرّة فيه تحت إطار مفهوم البيان في تعريفه له: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفْضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كأننا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"⁽¹⁷⁾، ومن هذا التعريف تصريح واضح عن أنّ توافر الأدلة والحجج والبراهين سواء كانت جلية أو خفية أمر واقع في عملية البيان والتبيين، كما أنّه حينما يتكلم المخاطب ويفصح عن خفايا نفسه وعقله يريد أنّ يؤثر في المخاطب بإفهامه، وبذلك تكون اللغة عاملاً حجاجياً ورابطاً قوياً بين طرفي التواصل، تتجاوز فيه كينونتها الشائعة بالوظيفة التعبيرية إلى كينونة حيوية في بعدها الحجاجي لتنشأ خطاباً حجاجياً.

ونجد الجاحظ يتفنن في تعبيره عن مدى قوة العلاقة بين "البيان" وصناعة "الخطاب الحجاج" في قوله: "وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلّما كانت الدلالة أوضح وأفصح، كانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه."⁽¹⁸⁾ فإننا عندما نريد أن نتكلم نحسن القول في الإبانة عن المعنى المراد إبعاده لمستقبل القول، ليكون القول فناً حتى أنّنا نبي أقوالنا وفقاً لصلتنا بالألفاظ والموضوع التي يفترض أن تكون قوية، وذلك لتحقيق التفاعل بيننا وبين المتلقي.

4_3_ البلاغة والفصاحة والمعاني ثلاثية قطبية تتلاعب أصابعها بخيوط السلم الحجاجي والقيمة الحجاجية:

تعدّ البلاغة أكثر العلوم اتصالاً وارتباطاً بالمفهوم الحجاج وكل ما يتضمنه؛ لأنها تعالج جوانبه المختلفة وأبعاد المتعددة، "وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة.

وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة. ثم قال: ومن البصر بالحجة، المعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعز طريقة. وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك وأحق بالطفر"⁽¹⁹⁾، فالبلاغة ترمي إلى التأثير في المخاطب، وهنا تقوم بالحجة لإبلاغ السامع والتأثير فيه، ويكون ذلك من خلال عوامل وروابط استدلالية لغوية متعددة، وأدلة والبراهين المتضمنة في الألفاظ وتراكيبها البلاغية، إلا أنّ الحجة قد تغيب

ليكون الصّمت عنها وعدم الإفصاح أبلغ حُجة في بعض المواضع، لأنّ ذلك يثير استفسارات عدّة لدى المتلقي، ولا شك أنّ عامل الوضوح في الدلالة له أثر جلي على النتيجة التي يحدثها من أثر في متلقي الخطاب.

ونجد الجاحظ يربط البلاغة بالحجاج في أثناء التّواصل بعدة أمور، حينما ذهب للحديث عن جواب ابن المقفع عندما سُئل ما البلاغة؟ فردّها إلى وجوه كثيرة تتضمن دلالات ومعاني؛ من نحو: سكوت واستماع وإشارة واحتجاج ورسائل وإشارة إلى المعنى وإيجاز...²⁰، وهذا التعريف يقود إلى القول بأنّ البلاغة إستراتيجية حجاجية وإقناعية بامتياز، كونها تسعى إلى نهج طرق شتى في صياغة المعنى والتّزام التّفنن في صناعة الخطاب الحجاجي البليغ، ليجاوز هذا الأخير أذن السّامع إلى قلبه والاستحواذ على عقله، ليمثل بذلك سلطة لغوية وحركية نابضة بالحياة؛ مستهدفة ممارسة سلطة لغوية حميمية على ذات المتلقي.

تؤدي الفصاحة دوراً فاعلاً في إيصال المتكلم أفكاره ومواقفه للمتلقين، وقد تغنى العرب منذ قديم الأسلاف بفصاحة اللّسان في الإبانة عن المعاني، وبلوغ الحاجة والتّمكن في النّفس، "جاء في قوله تعالى على لسان موسى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ سورة القصص (34)، وقال: ﴿وَيَضْحِكُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسَلْ إِلَى هَارُونَ﴾ سورة الشعراء (13). رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجّة، والمبالغة في وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع"⁽²¹⁾، ونخلص هنا إلى حرص المحاجج على فصاحة اللّسان في أثناء ممارسته للغة واستعمالها، وذلك من أجل تجسيد حجته من طريق الإفصاح عن المعاني الخفية، بوساطة خطاب حجاجي، يبيّن فيه عن مكنوناته من طريق صياغة سبيل المعنى وتصويره، بتوظيف ألفاظ نقية ومبينة الحروف ومستساغة في الأذن، ليكون كلامه أبلغ إلى قلب السامع، وأكثر تأثيراً في موقفه.

يسهم وعي المتكلم بما تظهره ألفاظ اللّغة، وبما تضمّره من المعاني في صياغة الخطاب المناسب للمعاني المقصودة، وللأثر الذي يرجو إحداثه في قلب السّامع، لذلك "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينهما وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"⁽²²⁾، هنا أحاط الجاحظ بكل عناصر التّواصل، بدءاً بالمتكلم الذي وُكِّل له مهمة المعرفة الجيّدة لما يقول، وما الذي يقصد من وراء قوله، فيتخير من الألفاظ ما

يخدم حاجته وحجته، وما يقيم معانيها للتعبير عن ما يختلج صدره، ويفصح عن مبتغاه، ويدرك مقاصده، وذلك أنه يكون على دراية بأقدار معانيه ليضعها ندا لأقدار المستمعين والحالات،

كما يتضح من خلال قول الجاحظ إلحاحه على الانسجام بين الألفاظ والمعاني والمقام، ولا سبيل في ذلك إلا التزام طريقة الصائغ في انتقاء الجواهر المناسبة لصناعة عقد فريد، حيث ينتهج سبيل تخير اللفظ البين الفصيح في صياغة خطاب حجاجي فعال، ولأن المادة الخام الكلام اللغة، وجب أن تكون خاضعة للنظام أو القواعد المشتركة بين المتكلم والسامعين، بحيث يمكن من خلاله للمتكلم أن يبين عن قصدية كلامه ومقاصد نفسه، أما المقام فنلاحظ أن الجاحظ أولى له أهمية كبيرة، لنجاعته في إنجاح سيرورة العملية التواصلية، وضمان التفاعل بين المرسل والمتلقي، ولا يكفي بأن يرمي إلى مقولة العرب أن: لكل مقام مقال، بل يذهب بعيد في ذلك ليعطي بكل الظروف والملابسات التي تعترض العملية التخاطبية، من أنه جعل لكل طبقة كلاماً، وهذا ما نجده أمراً سائراً في الحياة اليومية، ومتداول في علاقتنا نحن المتكلمة مع الموجودات، وحقيقة العلاقات القائمة في تعاملاتنا اليومية، ف لغة الطبيب تختلف عن لغة الأديب، ولغة الفنان التشكيلي تختلف عن لغة الفلاح، ولغة المتعلم المثقف تختلف عن لغة محدود المستوى التعليمي وهلم جر، فكل هذه العوامل إذا راعى حضورها المتكلم أسهم ذلك في استمرارية عجلة الخطاب الحجاجي وفاعلية العملية التواصلية.

إيضاح المعاني يكون في علاقة ترابطية للحجج، بشكل عمودي، حيث نجد السلم الحجاجي يستدعي دليلاً كان ما يعلوه أقوى منه مرتبة في فاعلية الحجة، وإن الجاحظ من قوام نظرية الحجج عنده التدرج في مراتب الحجج في الاحتجاج والجدل والمناظرة والخطبة وغيرها. وجاء في كتاب الجاحظ "البيان والتبيين" على لسان "سهيل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم"⁽²³⁾، ففي هذا المثال نلاحظ تدرج الجاحظ في استعمال الحجج، فقد بدأ بالحجة الضعيفة وصولاً إلى أقوى الحجج، وهذا كله خدمة لنتيجة واحدة وهي أهمية البيان، ويمكن أن ندرج ذلك من خلال أن: حياة الروح مرهونة بالعقل. حياة العقل مرهونة بالعلم. حياة العلم مرهونة بالبيان. فمستويات الحجج كانت مختلفة، ولكن كل هذه الحجج تخدم نتيجة واحدة وهي أهمية البيان الذي يتربع أعلى السلم الحجاجي.

4_4_ الروابط والعوامل الحجاجية:

تعدّ الروابط والعوامل الحجاجية من أساسات ومرتكزات القيمة الحجاجية لقول ما أو للخطاب، وهذه الروابط والعوامل تعج في صفحات كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، وتبدأ دفتيه.

نجدّ العوامل الحجاجيّة من أهم المؤشرات التي تخدم حجاجية الأقوال، وتفصح عن المعاني، حيث تقوم بتوجيه القول أو الخطاب نحو نتيجة ما؛ مما يجعلها تتضمن طاقة حجاجية قوية تسهم في المقصد من القول، وتفصح عن مقاصد المتكلم ومبتغاه، كما أنّ ذلك يترك أثرًا بيّنًا في ذات المتلقي، وفي اللّغة العربية الكثير من الروابط الحجاجية منها: بل، لكن، لأنّ، لاسيما، إذا، كي، بما أن، حتى.....، وسنمثل منها بالرباط الحجاجي "لأنّ":

تتمثل وظيفة الرباط الحجاجي "لأنّ" في تعليل الكلام السّابق لها، كما أنّها تربط بين السبب والعلّة، وبين ما تقدمها من الكلام وبين النتائج التي يؤوّل إليها الخطاب، ونجد من أمثلتها في كتاب "البيان والتّبين" للجاحظ ما يلي:

"ثم اعلم _حَفِظْكَ اللهُ_ أنّ حُكْمَ المعاني خلاف حُكْمِ الألفاظ؛ لأنّ المعاني مبسّطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصّلة محدودة"⁽²⁴⁾.

يعمل الرباط "لأنّ" على ربط المقدمة بالنتيجة، متخذاً توجّها حجاجيّاً، حيث نلاحظ في أن هذا القول يتألف من نتيجة وحُجة، تربط بينهما الأداة "لأنّ".

✓ الرابطة: الأداة "لأنّ".

✓ الحجة: المعاني مبسّطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصّلة محدودة.

✓ النتيجة: حُكْمُ المعاني خلاف حُكْمِ الألفاظ.

فالجزء الأول من القول (حُكْمُ المعاني خلاف حُكْمِ الألفاظ) هو النتيجة، أمّا الجزء الثاني الذي ورد بعد الأداة "لأنّ" _الذي يعدّ مدرج الحجج_ هو الحجة التي دلل بها على صحة ما جاء في النتيجة، وبرر من خلالها موقفه، والرأي الذي ذهب إليه (المعاني مبسّطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصّلة محدودة).

يمكن من خلال العوامل اللّغوية الحجاجية تحديد الغاية الإقناعية للخطاب، إذ إنّ المتكلم يستعين بمجموعة من الأدوات والأساليب اللّغوية التي تسهم في تحقيق مقاصده، والتي يسعى من طريقها إلى التّأثير في المتلقي وتوجيهه، وإنّنا نجد العوامل الحجاجية محرّكاً حيويًا لحياة الخطاب وتطوره واستمراريته، ونجدها تتجسد في أساليب عدّة مثل: أسلوب النفي وأسلوب القصر، ويمكن التّمثيل لها بالأدوات الاتية: ربما، تقريبًا، كاد، قليلًا، ما.....، وجاء منها الكثير في كتاب الجاحظ، ونمثل لها بـ:

"وقال أبو مسهر: « ما حدثت رجلاً قط إلا أعجبتني حسن إصغائه، حفظ عني أم ضيَّع»⁽²⁵⁾، فمن خلال هذا النص أراد الجاحظ أن يبين أهمية الإصغاء والاستماع في العملية التَّخاطبية، حيث قصر صفة الإصغاء في إعجابه بالمستمع، ومدى تأثير تحسين العلاقة بين المتكلم والسَّامع؛ مما يجعل الأول أكثر نشاطاً وأنفع حديثاً، واعتمد في ذلك على أسلوب القصر بالنفي والاستثناء، والذي تمثل في العامل: (ما...إلا).

مما تقدم يحيلنا إلى القول بأنَّ الزوابط والعوامل الحجاجية مؤشرات لغوية للحجاج، تسهم في تراتبية الحجج، وتحدد وجهة الحجاج، وتوضح المقاصد من الخطاب أو القول.

5_آليات الخطاب الحجاجي من وجهة نظر الجاحظ علاقتها بالبلاغة والنَّظريات اللِّسانية الحديثة:

كتاب الجاحظ مشحون بآليات البلاغة وأهميتها في تحقيق العملية التَّواصلية، كاهتمامه بفكرة المقامات وأحوال المخاطبين والصفَّات الجسدية والسلامة النُّطقية_كما سبق ذكره_، بالإضافة إلى اهتمامه بموضوعات بين البلاغة وعلم السيمياء كالصمت والإشارة...، كما أشار إلى قيمة اللفظ والمعنى وعلاقة الدال بالمدلول، ومدى تأثير اختيار الخطيب للغة، وسلامتها وتخير الدلالة في التأثير في المخاطبين وإقناعهم، وتغيير سلوكهم، وتلك صفات الخطيب القائد الذي يمكنه تغيير وجهات النَّظر أو الأمر أو النَّهي والتَّلاعب بالغة لصالحه ولصالح الفكرة المرادة، ويمكن تلخيص ذلك في المخطط التَّالي:



تغيير سلوك، إقناع، فهم، إفهام، قبول فكرة أو رفضها، اتباع نهج أو العدول عنه... عن طريق استخدام اللُّغة وكل علاقاتها ومكتسباتها اللِّسانية السيميائية، تداولية تحت الإطار الإبداعي للبلاغة والبيان²⁶.

6_ خاتمة:

سلطنا الضوء في هذه الورقة البحثية على حضور المقصدية الحجاجية في العملية التّواصلية، وترصدنا بعض ظواهر القيمة الحجاجية عند الجاحظ انطلاقاً من كتابه "البيان والتّبين"، وخلصنا في النهاية إلى جملة من التّنتائج أهمها:

- تتضمن العملية التّواصلية حضور المقصدية الحجاجية، لما يحمله الخطاب من الصّبغة الحجاجية التي تمكّن من الكشف عن مقاصد المتكلم التي ترمي إلى التأثير في المتلقي بإقناعه بأفكار معينة، أو تعديل سلوكه أو تغييره، وذلك من خلال المادة الخام للحجاج الكامنة في اللّغة في أشكالها التّواصلية المختلفة.
- تسهم الزّوايا والعوامل الحجاجية في بناء ترابعية السلم الحجاجي.

- للمقام التّواصلية دور فعال في إنتاج الخطاب الحجاجي الذي يرتبط بشكل مباشر بالحياة الاجتماعية والمواقف الإنسانيّة.

- تتفاوت مستويات الحجج في قوتها وضعفها، إذ تتعلق ذلك بإبانة المعاني في الخطاب، وضوح غايات المتكلم، واختلاف طبقات المتلقين.

- يتميز أسلوب الجاحظ في كتابه "البيان والتّبين" بلونه الإقناعي، حيث يمثل الحجاج عامّة والقيمة الحجاجية بشكل خاص من أبرز التّقنيات الخطابيّة، إذ ترتفع الأدوات والأساليب اللّغوية من قيمة العبارة اللّغوية، مما يجعلها حجة قائمة بذاتها.

- عالج الجاحظ النموذج السيميائي من خلال وعيه بالقدرة الإشارية للغة وخاصة في المقامات التي يكون الصمت فيها أبلغ حجة.

- ركز الجاحظ أيضاً على المستوى التداولي والقيمة اللفظية للغة وأهميتها في الحجاج التواصلي.
- يتغير السلم الحجاجي بتغير القوة الحجاجية للفعل الكلامي من الأدنى إلى الأعلى بقوة الدلالة أثناء اتحاد الدال بالمدلول وقوة اختيار الخطيب للكلام أثناء نسجه للحجج الموافقة للمقامات والأحوال.

- تعيق أمراض الكلام قوة الحجة الكلامية وكذلك عدم مراعاة الأحوال وخاصة النفسية للمتكلم. وذلك يحيلنا إلى أن التواصل بين المتحدث والمستمع يحتاج معادلة لغوية تشحن الفهم والإفهام ودورة الكلام فيها تحتاج متحدثاً بليغاً فصيحاً عالماً بأسرار اللغة. نبهنا فطنا لا يقول الكلم إلا إذا وافقت المقامات والأحوال والأحداث. وكل فعل كلامي خارج ممن نطاق ذلك يُخل بالحجاج والتواصل.

6_الهوامش:

- 1 - ينظر الغزاوي، أبو بكر، اللغة والحجاج، العدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006م، ص8.
- 2 - ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل، لسان العرب، تصحيح أمين عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط3، 1999م، ج3، مادة (ح، ج، ح)، ص53، 54.
- 3 - التاج، عز الدين، تداولية الصّمني والحجاج بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب: بُحُوث ومُحاولات، مركز النشر الجامعي كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، تونس، 2015م، ص24، نقلاً عن، صولة عبد الله، تقديم لمصنّف الحجاج والبلاغة الحديثة ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج، إشراف حادي صودي، منشورات كلية الآداب متّوية، تونس، 1999م، ص299.
- 4 - ينظر الغزاوي، أبو بكر، الحجاج بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2020م، ص17.
- 5 - عبد الرحمان، طه، اللسان والميزان أو التكوّن العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998م، ص226.
- 6 - المرجع نفسه، ص226.
- 7 - ينظر بومزير، الطاهر بن حسين، التّواصل اللساني والشّعريّة مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكسون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007م، ص41.
- 8 - ينظر الغزاوي، أبو بكر، اللغة والحجاج، مرجع سابق، ص20.
- 9 - ينظر، المرجع نفسه، ص22، 23، 24.
- 10 - ينظر، المرجع نفسه، ص26.
- 11 - الغزاوي، أبو بكر، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، ط1، 2010م، ص106، نقلاً عن، عبد الرحمان، طه، التّواصل والحجاج، منشورات كلية الآداب أكادير، الرباط، دط، دت، ص25.
- 12 - المرجع نفسه، ص106.
- 13 - ينظر بلانشيه، فيليب، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار سوريا، ط1، 2007م، ص109.
- 14 - ينظر، بن ظافر الشهري، عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط1، 2004م، ص448.
- 15 - ينظر عبد المجيد، جميل، البلاغة والاتصال، دار غريب، القاهرة، 2000م، ص106.
- 16 - ينظر الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، ج1، ص11.
- 17 - المصدر نفسه، ج1، ص76.
- 18 - المصدر نفسه، ج1، ص75.
- 19 - المصدر نفسه، ج1، ص88.
- 20 - ينظر، المصدر نفسه، ج1، ص115، 116.
- 21 - المصدر نفسه، ج1، ص07.
- 22 - المصدر نفسه، ج1، ص138.
- 23 - المصدر نفسه، ج1، ص77.
- 24 - المصدر نفسه، ج1، ص76.
- 25 - المصدر نفسه، ج1، ص40.
- 26 - كل ما جاء في هذا المخطط مستخلص من استنتاج عام لما جاء في المقال باجتهادنا الخاص.